

## صلاتي

**Mots clés :** Prière, Dialectique transversale, co-transcendance

١. في أحد اللقاءات الروحية، تقدّم مّي شابٌ وسألني : أبونا يتصّلّي ؟ فصعقتُ للسؤال، ولشدّة المفاجأة لم أحب مباشرة محاولاً إستيعاب الصدمة، حتى بادرثُ قائلاً، في العموميّات، إننا، كرهبان، نتبع نظاماً ديريّاً تتخلّله أوقاتٌ محدّدة للصلاة. فسارعُ وأضاف، ممعناً في إرباكي: أعرفُ ذلك، وخارجاً عن هذه الأوقات، هل تصلّي ؟ هنا، لم يكن مّي إلا أن اكتفيثُ بابتسامة مطمئنة، وحولتُ الحديث، واضعاً حدّاً لمن تجاوز الحدود وتجزّأ في التحديد دحولاً إلى ما اعتبرته أموراً شخصيّة.

٢. مرّت بضع سنوات على هذه الحادثة ولا زلت أسمع السؤال، في صيغة مخاطبة ومساءلة الذات : هل أصليّ؟ ومن يعنيه أمرٌ صلاتي، أكان ذلك في إطار نظام الفرض اليومي أو داخلَ غرفتي الموصدة الباب ؟ أكان ذلك همساً أو ترتيلاً، شكراً وتسييحاً أو توجعاً وبكاءً، فابتهالاً ؟ في نطاق الإحتفالات الكنسيّة الليتورجيّة أو ضمن المبادرة الذاتية المهتمّة بتلبية الحاجات الخاصّة ؟ نعم، من سواي يهّمه أمرٌ صلاتي ؟ وهل الله يهتمّ وهو العارفُ، فاحص الكلى والقلوب، كاسي زنايق الحقل حلياً، وطيورُ السماء تشبّع من خيرٍ لم تخزنه في أهراء ؟!

٣. من يهتمّ ؟ أو لنقل من لا يهتمّ ؟

٤. قبل البدء بعرض الأسماء، وقد تطول اللائحّة، لنا محطةٌ في رحاب الموجود من جود الله وتخطبِ الأنا والأنت. يرفع صاحبُ المزامير التسبحة من فم الكائن المنتور على الضفاف، المسحور بتشابك الأيدي واصطفاف العبر، عند أفول العجاف من سني الألم والفقر، والتفاف الفكر على بلورة معنى بلا أوصاف، فيصفو الدعاء للشكر ويعلو في الهتاف. سماءٌ وأرضٌ، جبالٌ وأكهارٌ، سهولٌ بقاع وبحارٌ، طيورٌ، حيوانات، وأشجارٌ، جمعها صوتٌ وأوتارٌ، آدمي يلعب، وأسرارُ اللّهو، في قاموس "اللي هو" خلقٌ، تدبيرٌ وأنوارٌ. ولو كان الخلق بمجمله صامتاً يُسبّح الخالق ممّا هو منه وله، فصاحبُ اللسان يجلّه إن سبّح، ويسبّح الله أكثر إن هو على فكر الله عقده.

٥. الصلّاة حاجة المخلوق إلى الخالق، وعطشُ المحدود إلى اللامحدود، عوزُ الناقص إلى الكامل. الصلاة وعدٌ يحضنه جسر التلاقي بين إننين، بطاقة ائتمان في يد المؤمن، وورقة رابحة في جيب غير المؤمن. والسرُّ شموليّة

الفائدة، وقدسيّة المائدة المفروشة أمام كلّ جائع وعطشان. الصلاة زاد الرّوح، قوّة الجسد في تساميه، استراحة العقل في تناميه، يقظة الوعي لصفوة الرّشد، لثورة الحقّ. الصلاة انتعاش الحسّ المفتون بغربة الذات، الموزون على دقّة الباب، باب القلب المشلوح في غاب، في وحشة ذهاب وإياب. الصلاة نعمّ ولا : نعم لصوت نسمعه، لراحة فؤاد وضمير ؛ ولا تصدّ اليأس، تدرأ الخنوع، تصافح البأس تمنع الممنوع، تنقي الشخص، تدلّ على يسوع. والآدميّ المجلول على النقيضين أسرع إلى الإحتفال بمعرفة الجناحين المرتبطين بعهدين وريدين : حياة تستمرّ وخلص من "بين - بين".

٦. ومهما كان هدف الصلاة وماهيّة الكائن الذي نتوجّه إليه بصلاتنا، أو نبيّ جسورًا معه، فالإنسان، هذا الكائن الاجتماعيّ والعلائقيّ بالفطرة، يكشف، في صلاته، عن البعد الدينيّ المكوّن لذاتيّه التوّاقة إلى المعية-التجاوزيّة co-transcendence، والباحثة عن الأنا في الآخر للتواجد في تعاليه وتتحقّق فتنتقي في تدنيّه. في هذا الإطار المضيء يصحّ الحديث عن جدليّة عرّضيّة transversale بين الصلاة وشراكة الحياة. جدليّة من عمر الإنسان، من صحوة الفكر على الزمان، على وصل البدء بشطّ الأمان، وصع البرد في كلّ مكان.

٧. من معضلة إلى أخرى، كمن جزيرة إلى أخرى، يبحر المصلّي، في بال السرياني<sup>١</sup> وفي قلبه، فاتحًا عباب اليمّ غير عابئ بمخاطر ولا مستسلم لخواطر عابرة. همّة الإبحار، فالإرساء، ثم الإبحار من جديد... هكذا هو المصلّي لا يكتفي بمحطّة ولا بإثنين، كالسامع في تشيية الإشتراع (٦/٤-٩)، يشدّ وسطه باستمرار، متأهّبًا، يعصبّ جبينه على اسم الوحيد، يحفر قسّمه على جلد المرید، كما تشهد عتبة المسافر، الحاجّ أبدأ، العابر كلّما دقّ جرس الرحيل، واشتعل غمام، أو عبّدت بحار.

٨. نعم، مسافر المصلّي ووجهته المجهول، العصي عن الإدراك، المنزّه عن التصوير. قد يخال له أنّه واصل والتحمّ يصدّق، ولكنّ الإبحار، كالإرساء، رهنّ بكلمة، بغبطة، بنكسة، بورطة الإحساس المفتول على قسبة، رخصية، سريعة العطب. ما أن يهنا من دفء على رمال شطّ الحلم، ويشرب السلسيل من صخر الإيمان، ويجتاز المنّ، سلوى وأمانا، حتى تشعّ في عينيه علامات السبيل، صورة همّ في ترويض الثبات، تلطيف الفراق، ومؤاساة الواصلين والراجلين. وتستمرّ المحاولات، تنجح حينًا وترسب حينًا آخر. تطمر المسعى شهورًا وتعود فتبرعن، تورق فتزهر وتثمر حتى البلوغ فالسقوط، فالتحوّل. كوقع التسع المتدقّق في عروق الأشجار، ينبض إكسير الصلاة في قلب المسافر المؤمن، يعلو به ويهبط كلّما أطلّ قمر أو غاب حبيب.

٩. مسار الصلاة صعودًا في أفقيّة الإمتحانات الصعبة، المبتلّة بعرق الجهاد، المنشورة على حبال القسوة، المكوّبة على أنوار المجد المتفجّر من داخل، المطوية على مرآة الذات المتهبة بقبلة السماء، بصمّة الحنان

١. إسحق السرياني، نسكيات، المقالة الثالثة والسبعون، الفقرة الخامسة

الأبويّ، نسخة العشق الذي يلهبُ المادّة بمسّ الرّوح<sup>٢</sup>. مسارُ الصلاةِ درجٌ بابليّ، يشقُّ فلوّاتِ الأنا الواسعة بحثًا عن سقفٍ تُعلّقُ به ثريّا الخير، تضيءُ لياليه، وتحمّلُ لولبه إذا ما طلّع الضوؤ. زبدة هذه الحكاية أنّ الإنسانَ "مصلحجيّ" بالفطرة، والمجانّيّة عنده مفاوضة، فمقايضة بخير أسمى، يحلّه من قيد الجشع فالكبرياء ؛ وما "الدوران" إلّا تلطيفًا، لرغبة التملّك العارمة بدءًا بالتمسّك بالحياة، ومن خلالها بالألوهة. مسار الصلاة بداية وبداية حتى تقفل البدايات، ويغفو السالكُ في حُسن اليقظة السّاهرة على الأبد. حتّام الحين ! حتّام الآن ! والوعد أمينٌ في كلّ أين وأن !

١٠. وحيد في سفره، غريب في أرضه، لا يلبث المصلّي يبحث عن الرفيق. يقول إنّه له، ولا يجده حتى يفتش عنه من جديد. يسألُ ويسأل، ولا يعرف إلّا ذاته جوابًا ؛ نَعَم الرفيقُ إذا ما صافح إلهه في منتصف الطريق، على عبّارة التحلّي، فالتخلّي والتغيير، بعد الكسر، والإسم المشير. رفيقٌ حتى النصفِ الثاني، والعودُ على بدء، إلى فراقِ أليم ؛ حتى نزعِ الشوك من خاصرة التّأخي، من قلب الأمّ المفجوع على تباعد العين عن العين. وحيدٌ لا يجد عضده، سلواه، إلّا بمدّ يد المصالحة لأخيه، فيشكران معًا ويسعدان معًا. نَعَم، "الوحيد مع الوحيد"، لُقيا غريبة في متاهة الذات المقفلة على ذاتها. يدُ الله عونٌ، ويدُ الشريك خيطٌ لآريان التّائهة، الهاربة من وحش الغربة. يدُ الشريك تُضمُّ إلى اليد المرفوعة إلى فوق، فيستحيلُ المستحيلُ معقولًا، ويصيرُ الإنسان ما هو عليه.

١١. هذه الجدليّة العرّضيّة، "الرافعة"، بين الأنا والأنت، تجمعُ في الإثنين أنا، وتخطبُ في الأنا أنت. والصلاة، صورةُ العقد، وضمانُ الوحدة والحقّ في الاختلاف، فالتكامل، هديّةُ الأوّل لصورته كمثاله، كحيزّ العقل للكلمة، الورد للشذى، والشمس للضوء. في الصلاة قربي فمعرفة، فحياة جديدة. في الصلاة نلتقي والله، في الله، وفي الأنا الصاعدة. في الصلاة تُرفع مع الذات كلُّ ذات، حتى الحجر، حتى الفتات تحت مائدة البشر. في الصلاة ترسم خطوط الشراكة الحقيقيّة، المؤسّسة لحياة المجتمعات، كلّ المجتمعات. وربّ سائل : هل كلّ البشر يصلّون ؟ أو يعتقدون على التلاقي أملاً، وعلى التكامل في التجاوز عزماً ؟

١٢. جواب اليوم كسؤال الأمس، تردادٌ صدمة بين الحدود، لا يلطّفها، فيسكّنها، سوى الهذيد المستمرّ في قلايات المتعبّدين، المترجّع في الأقبية وتحت القناطر، أو في حناجر المرتّلين الشاكرين. سجدة، فبكاءٌ، فابتهالٌ، فتضامُن المعوزين ؛ وسرّ الشراكة الحقّة، مبادرة نقيّة تحصد الأوفر من خير العاملين، توزّعه برّاً على الناجحين والرّاسبين. لهذا السبب، تصعب الإجابة الدقيقة عمّن هو المستفيد، أو من هو المهتمّ بصلاة المؤمن، المستزيد. فالتضامن البشريّ، كشراكة الرفاق على الدرب، كقرابة الأخوة والأهل، أشدّ قوّة في الصلاة منه في أيّ شيءٍ آخر. والسبب أنّا في الصلاة نتذكّر معاً، فننوّج معاً، لنرتفع معاً صوب الآب السامع، إن لم يسبقنا منتظرًا على منتصف الطريق. حبّذا لو خطونا نصف الشوط وارتمينا على الوعي.

٢. أوغسطينوس، في العظة على الجبل، القسم الثاني، الفصل السادس، " الصلاة الرّبيّة"

١٣ . في لقاء الآب امتحان النشوة الفياضة، بنت الوجد الكريم، وقد فاح على المدى. فيها تكتمل الرؤيا، وتقف الذات أمام مرآة ذاتها عريانة دونما حجل؛ ولا هي تخجل من عري رفاقها، أخوتها. في لقاء الآب سرور الوحدة في نضارة البداية، البريئة من دنس، المتشحة ببهاء الخلود، صورة الصبح المنبلج في خفايا القلوب. ومن لا يدوب على شرارة اللقيا؟ يتوب؟ والله تواب يعجن الخير صلحا يخبز ضعف البشر. كالشموع يضيء المصلون، يوزعون الدفء، يرحون في ظلال الرأفة، ينعمون بالعطاء، ويسوع مشع، يسوع، من كل الهدايا، ابتسامه البقاء.

١٤ . وكيف لا نهنأ بأمر المصلين؟ حق لنا عليهم إشراكنا في نشوة الانتصار ولو بعد طول انتظار! كيف نغلق بابا لا قفل له، وصلاة التائب مشرعة الأبواب؟ كالميرور على جفن المعمد هو ربح الجماعة من سجدة الناسك، من صوت المرتل، من صمت المخطوف. كالتاج على رأس المختر هو فخر الإنسانية بالمغامر المنتصر على اللامألوف. كحكاية الملوكية في كهنوت الشعب وهي تُقص في الخلوات، في سكينه المسحور بزوايا المذبح، حيث المهرق من دم وماء، حيث المشاركة حق، والحياة. تضامن ومشاركة، هذه هي صلاتي، وهذا ما رماه في بئري سؤال الشاب. هذا ما اخترته كل ما تخطيت عقبه، وعرفت أن سر قوتي مستمد من صلاة أحدهم. وهذا ما تستشقه صلاتي في عيون المتعبين الضاحكة.

١٥ . إلهي هذي صلاتي، كسوتي وغذائي: صيرني ندى إن جفّ النبع أو انحبس المطر. منديلاً لدموع الأمل. والملء من فراغ ذاتي يحدد الأمل، ذاكرة بيضاء في حاضر اللقيا، في ختام السبل. صيرني كما أردت بعدما انحفرت في الرؤيا مشيئة الإبن، وانتشرت أهاليح الروح، وتعبدت، بعدما تسمرت في الدهن كلمة، فقرأت: أحببت...

الكسليك، إثنين الرماد ٢٧ شباط ٢٠٠٦

يوحنا عقيقي

عميد كلية الفلسفة والعلوم الإنسانية

جامعة الروح القدس - الكسليك